

## تحديات العولمة البراجماتية – فلسفة التربية البراجماتية أنموذجا –

-علة مختار أستاذ محاضر-أ- جامعة الجلفة

-زنقوفي فوزية أستاذة محاضرة –أ-

-قريد سمير أستاذ محاضر-أ--جامعة قالمة-

## ملخص

من الأهداف الثقافية للعولمة، الترويج لفلسفة النظام الغربي الرأسمالي النفعي البرجماتي، وفرض الثقافة الغربية الوافدة، وجعلها محل الصدارة والهيمنة في العالم، وقهر الهوية الثقافية للأمم والشعوب الأخرى، من خلال تسخير القوى العلمانية الداخلية من الكتاب ورجال الإعلام والتربية لصالح العولمة الذين يروجون للعولمة والكونية ويؤكدون أن الشعور بالولاء للأمة والوطن يعتبر من مخلفات الماضي، وبذلك يؤكدون التدخل الأجنبي في التفكير وطرائق الحياة، والتدخل في المناهج التعليمية لتغيير عقول الناشئة وتذويب هويتهم الثقافية، ومن ثم تهيئتهم لتقبل ما تبث من وسائل الاعلام الغربية من قيم مادية متدنية. وهذا ما يفرض علينا البحث عن الآليات الكفيلة بالحد من تحديات العولمة البراجماتية، ومعرفة أوجه العلاقة بين فلسفة التربية البراجماتية وظاهرة العولمة.

الكلمات المفتاحية: التحديات، العولمة البراجماتية، فلسفة التربية البراجماتية

## Abstract

Among the cultural goals of globalization is the promotion of the philosophy of the pragmatic utilitarian capitalist system, the imposition of incoming Western culture, and the position of it as the center of dominance in the world, and the conquest of the cultural identity of other nations and peoples, by harnessing the internal secular forces of writers, media men, and education in favor of globalization who promote globalization and universality. And they affirm that the sense of loyalty to the nation and the country is a relic of the past, and thus confirm foreign interference in thinking and ways of life, and interference in educational curricula to change the minds of young people and dissolve their cultural identity, And then preparing them to accept the low material values broadcast by the Western media.

This requires us to search for mechanisms to reduce the challenges of pragmatic globalization, and to know aspects of the relationship between the philosophy of pragmatic education and the phenomenon of globalization.

**Key words:** challenges, pragmatic globalization, philosophy of pragmatic education

## مقدمة

تتنوع العلوم الإنسانية والاجتماعية تنوعا كبيرا، سواء فيما يتعلق بأهدافها أو مجالاتها أو الموضوعات التي تدرسها، وتعد الفلسفة واحدة من أهم العلوم الإنسانية التي حظيت باهتمام واسع على مر التاريخ، فهي من أقدم العلوم في تاريخ الفكر الإنساني، لذلك فقد شغلت الفكر الإنساني عبر العصور والمجتمعات بسبب ما تنزع إليه من تقصي وبحث وإدراك العلل والحقائق وفمها وتفسيرها.

وقد ظهرت فلسفات كثيرة عبر التاريخ الإنساني أثرت في جوانب الحياة المختلفة، الفكرية، الاجتماعية، الاقتصادية والتربوية. وتعد الفلسفة البرجماتية واحدة من أشهر الفلسفات المعاصرة ومن أوسعها انتشارا.

لقد جاءت الفلسفة البرجماتية تحمل في طياتها فكرا جديدا يختلف عن الفكر الفلسفي الذي قدمته الفلسفات التي سبقتها سواء في منطلقاتها الفكرية أو في تطبيقاتها التربوية المتعددة، وقد أطلق على البرجماتية مجموعة من التسميات مثل الفلسفة العملية، لتأكيدا على ضرورة اختيار الأفكار عمليا ولمعرفة مدى قيمتها وفائدتها، وبالفلسفة التجريبية، لتأكيدا على أهمية الطريقة التجريبية في كسب المعرفة الإنسانية، وبالفلسفة النفعية، لأنها ترى أن الأفكار والأعمال التي تقوم بها الفرد تستمد قيمتها من مدى نفعها له وللمجتمع، كما سميت أيضا بالفلسفة الأدائية والفلسفة الذرائعية، ولا شك ان لهذه الفلسفة جذورا فكرية تنطلق منها وتحدد أهم معالمها وتؤثرا كثيرا على التطبيقات التربوية المصاحبة لها.

## أولا: الجذور التاريخية لفلسفة التربية البرجماتية

يُرجع بعض الباحثين جذور فلسفة التربية البرجماتية إلى الفكر اليوناني، خاصة إلى زمن "هيراقليطس" (475-535 ق.م) حيث عُرف بفيلسوف التغيير، إذ كان يؤمن بفكرة التغيير المستمر وبأن الحقيقة المطلقة لا وجود لها. في حين يرجع البعض الآخر جذور تاريخها إلى بعض الفلاسفة التجريبيين المحدثين، ويعدونها فلسفة أمريكية معاصرة. لكن

الإجماع بين الباحثين، أن البرجماتية بدأت في القرن 19م، على يد "تشارلز بيرس *Charles Peirce*" بعد دراسته لكتاب "كانط"، ثم "وليام جيمس" الذي طوّر أفكار بيرس أكثر، وطبقها في بعض النواحي، ثم واصل جون ديوي ذات النهج، ولكنه فضل أن تسمى بالذرائعية أو التجريبية، واعتبر أن منحى بيرس كان مجرد نظرية في التحليل المنطقي. فالفلسفة البرجماتية لا تتعدى كغيرها من الفلسفات أواخر القرن 19م، وهي فلسفة إنسانية فردية، تمثل امتدادا لسابقتها التجريبية خلال الثلث الأخير من القرن 19م.

وتُنسب البرجماتية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لأن جميع مؤسسيها أمريكيان ولأنها تحمل سمة الحياة الأمريكية، وتمثل روح الأمريكيين أصدق تمثيل، بدءا من استيطانهم للأرض الجديدة، حين كانت تواجههم المشكلات والمصاعب العديدة، فكانوا يلجأون إلى التجريب والتعديل في أسلوب معيشتهم ونظم تكييفهم للبيئة، حتى يضمنوا لأنفسهم البقاء الأصلح والنفع الأكثر جدوى. وعليه فإن البرجماتية هي النمط الذي أفرزه المجتمع الأمريكي وتقدمه التكنولوجي (علي نبيل، 2001: 301).

#### ثانيا: الآليات الكفيلة بالحد من تحدي فلسفة العولمة البرجماتية

تحمل العولمة دلالات ومضامين سلبية وأخرى إيجابية، ولا تختلف في الشق الإيجابي من الظاهرة، المتمثل في جوهره في الاستخدام الأمثل للتقنية والمعلوماتية التي أفرزتها العولمة لما فيه خدمة للإنسانية من خلال عولمة الروابط الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والأهمية التي يعطيها المجتمع للمعرفة والمعلومات. وهذا ما يدفعنا إلى مواجهة التحديات التاريخية التي تتمثل في إفرزات العولمة بوصفها صيغة حضارية مرتبطة بمعطيات التكنولوجيا والتقدم المادي الذي تحققه الإنسانية في مسار حركتها وتطورها، كما تتمثل التحديات التاريخية في حركة عولمة ثقافية صهيونية أمريكية، تهدف إلى تذويب الهوية العربية الإسلامية وتفرغ الثقافة العربية الإسلامية من مضامينها الحضارية، وهدم مشاعر الانتماء العروبي والإسلامي وبناء مشاعر النقص والقصور والتبعية والاستسلام والخضوع في الشخصية العربية كمقدمة أساسية للسيطرة الشاملة. وهذا ما يفسر عملية التسويق لفكرة التربية الحديثة أو التربية المعاصرة أو التربية التقدمية أو التربية العالمية أو التربية الإنسانية، والتي تعتبر كلها ترجمة مضمونة مباشرة للتربية البرجماتية الأمريكية الدويوية -نسبة إلى جون ديوي- (أحمد محمد الدغشي، 2017: 14).

فالتربية البرجماتية هي الوجه الآخر للعولمة التربوية، ذلك أن الفلسفة البرجماتية وإن كانت أمريكية من حيث الجذور والنشأة والفلسفة، باتت هي السائدة في ربوع الغرب بشقيه الأوروبي والأمريكي، والأساس الذي تنهض عليه فلسفة المعتقدات، وتبنى عليه المعارف الإنسانية على اختلافها. ومهما قيل عن أن قيادة العولمة الآن ليست حركا مطلقا على الولايات المتحدة الأمريكية، بل يقودها إلى جانبها اليابان والاتحاد الأوروبي والذي يضمن 66% من التبادلات

العالمية، فإن التحدي الأمريكي يظل قائما في الأساس، إذ هو من يملك ما يمكن وصفه بأنه نفوذ شامل وهيمنة من مختلف الميادين والمجالات، وهو ما يجعل التحدي أمام مجتمعاتنا يتسع على كافة الأصعدة، مما يستدعي تحديد سبل المواجهة الشاملة، والتخلي عن التركيز على بعد واحد في المواجهة كالبعد الاقتصادي وحده، وهذا يشترط أن تتسق الجهود بين أهل كل مجال من مجالات العلوم بمختلف تخصصاتها طبيعية أو تطبيقية كانت أم إنسانية واجتماعية. وهذا يقتضي الاعتراف بأن هناك ثمة أسباب تقف من وراء الأزمة الراهنة، ولعل أبرز هذه الأسباب تتضح في:

- غياب فلسفة اجتماعية تبنى عليها فلسفة تربوية واقعية متماسكة.

- الوقوع في الفكرة ونقيضها، حين نستعير من الغرب دون النظر العميق في خصوصياتنا الثقافية والاجتماعية من الأساس.

- الخلط بين الغايات والمقاصد والإجراءات والوقوف عند حدود العموميات والمبادئ العامة التي لا خلاف عليها ( أحمد محمد الدغشي 2017:15).

مما سبق تتضح العلاقة العضوية بين فلسفة التربية البراجماتية وظاهرة العولمة التي تتمثل في علاقة الكل بالجزء.

### 1- مفهوم الفلسفة البراجماتية

يذهب هيندرسون إلى أن البراجماتية تعود إلى كلمة يونانية هي "براجما"، وتعني الشيء الذي يتم عمله أو العمل وفعالية العمل.

وكان أرسطو قد إستعمل هذا المصطلح للتمييز بين الحياة التجريبية والعملية من حياة الأفكار. كما استخدمه المؤرخ اليوناني بوليبيوس في تفسير دراسته التاريخية حول البحث عن حقائق الماضي لاستخلاص الدروس والعبر ( أحمد محمد الدغشي، 2016:15).

وبراجماتوس باليونانية : الفعل أو العمل، وقد عرفت بمجموعة من الأسماء: كالفلسفة العملية، النفعية، الوظيفية، الأدوات والتجريبية.

ولعل الأدواتية *Instrumentalist* هي الأكثر شهرة حتى عرفت بها البرجماتية، لكونها تنظر إلى المعرفة والخبرة بوصفها أداتين لتحقيق أغراض عملية ومصالح نفعية، وهذا ما دفع بعض الباحثين لإطلاق صفة المنفعية على البراجماتية، حيث ركزت على المنفعة واعتبرتها المحك الحقيقي والمعيار الصادق للحكم على الأفكار.

وقد قامت حركة التربية البراجماتية معتمدة على الفلسفة النفعية التي كثيرا ما تسمى بالتربية التقدمية التي تعتمد على النفع في الأشياء التي تخدم الإنسان، وتُخضع كل شيء للتجربة المادية، دون النظر إلى المثل أو القيم الروحية الثابتة الموجودة قبل وجود الإنسان والموجهة لسلوكه (قورة، حسين سليمان، 1985م، ص213)، وترفع التربية البراجماتية شعار تعلم بأن تعمل، لتتحول المدرسة إلى مؤسسة اجتماعية، تلبية لمطالب سوق العمل. ومن هنا

تكتسب التربية الطابع النفعي المحض، إذ لا بد أن يكون للتعليم قيمة فورية، فالمعرفة لا تُطلب لذاتها بل كأداة للعمل المنتج (علي نبيل، 2001: 302).

ومن هنا يمكننا إدراك وجه محوري من أوجه العلاقة بين الفكر التربوي البراجماتي والعمولة التي تقوم عملياتها على الاقتصاد والمال والتجارة وتعظيم المنافع وتحقيق المزيد من الأرباح من أجل تأكيد النفعية.

## 2- العمولة

يُميز بعض الباحثين بين الكوننة، وهي عبارة عن الترجمة الدقيقة لكلمة *Globalisation*، والعمولة هي ترجمة لكلمة *Mondialisation*. فليس من السهل تقديم تعريف دقيق للعمولة نظراً لتعدد تعريفاتها وتأثر كل تعريف بإيديولوجية صاحبه وانحيازه النابع من إيديولوجيته، إلى جانب الموقف من العمولة قبولاً أو رفضاً. ولما كانت العمولة ظاهرة من الظواهر الكبرى ذات الأبعاد والتجليات، فإنها تُوصف أكثر من أن تُعرف، لكن ثمة فرق جوهري بين مفهوم العمولة الغربي بصورة عامة ومفهوم العالمية في الفكر التربوي الإسلامي، حيث يقوم المفهوم الأول على فرض نموذج الحضاري على غيره من النماذج للشعوب والأمم الأخرى، وذلك على كل المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية والإعلامية وغيرها من أهداف الفلسفة البراجماتية الغربية التي تعتمد على تحقيق أهداف النمو للمواطن الغربي على نحو من المركزية الغربية المتطرفة على حساب غيره من الشعوب والأمم، حيث تفترض هذه الفلسفة أن يكونوا في موقع التابع بلا نقاش. في حين يعتمد مفهوم العالمية في الفكر التربوي الإسلامي على اعتماد قواسم الاشتراك بين أبناء الإنسانية، وذلك من منطلق الأهداف الحضارية القائمة على التعارف بين بني الإنسان، وليس التعارك والصراع، وفرض سيادة القوي على الضعيف، أو قهر الغالب للمغلوب (غارودي، روجيه، 1998: 63-64).

إن العمولة *Globalisation* هي إرادة لهيمنة، وبالتالي قمع وإقصاء للخصوصي، أما العالمية فهي طموح إلى الارتفاع بالخصوصية إلى مستوى عالمي. فالعمولة احتواء للعالم والعالمية تفتح على ما هو عالمي وكوني. فالعمولة تمتاز:

أ- الهيمنة: إذ يرى بعض الباحثين أن العمولة ما هي إلا حقبة التحول الرأسمالي العميق للإنسانية جمعاء في ظل هيمنة دول المركز وبقيادتها وتحت سيطرتها، وفي ظل سيادة نظام عالمي للتبادل غير المتكافئ. إن توصيف الهيمنة على هذا النحو هو نابع من تأثر ماركسي بالصراع التقليدي بين الرأسمالية (الامبريالية) والشيوعية (البروليتارية)، غير أن جوهر التوصيف يكشف عن الصلة الرابطة بين فلسفتي البراجماتية والعمولة. أما الحديث عن وسائل الاتصال وتحويلها العالم إلى قرية واحدة، فإنه صحيح من حيث حدوث ثورة هائلة في عالم الاتصال، لكن ما ليس صحيحاً، أن

أهل هذه القرية ليسوا سواء، بيوتهم مختلفة، حيث يسكن فيها الظالم والمظلوم، وبها من يتأجج بأسلحة الدمار الشامل(عمارة محمد، 1998:120-119).

والقول بأن العولمة تسعى لبناء عالم واحد، أساسه توحيد المعايير الكونية وتحرير العلاقات الدولية، السياسية والاقتصادية، وتقريب الثقافات ونشر المعلومات...، إنما يمثل المعنى المثالي للعولمة، في حين يبرز المعنى الواقعي لها. الذي يمثل سمة ملازمة لها، وهو معنى الهيمنة، حيث الإلحاق الانتقائي والعمل على تقسيم العالم إلى غالبية القوى الكبرى ذات المصالح المتبادلة والمؤسسات العالمية والشركات العملاقة، وعالم الدول النامية أو المستضعفة. وهنا يُفرض على العالم الثاني القبول بدور التابع للعالم الأول (مدكور علي أحمد، 2000:217).

وإجمالاً، فالسمة المميزة للعولمة، ولاسيما في مجال السياسي، هي هيمنة القوى العظمى، بمعنى هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية وإصرارها على فرض نموذجها الحضاري وتعميمها له على جميع بلدان العالم.

ب-التسليع: أي تسليع كل شيء، فأساسها اقتصادي. وقد أدى شيوع النزعة الاستهلاكية في الغرب إلى تعاظم آليات فرضها سياسياً واقتصادياً وإعلانياً وعسكرياً بعد التداعيات العالمية، الناتجة عن انهيار المنظومة الاشتراكية، وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي.

### ثالثاً: الانعكاسات التربوية للعولمة البراجماتية

إن العولمة في التربية اصطلاح جديد ذو معنى شامل يتضمن في جوهره الانتقال من المجال الوطني أو الإقليمي (القومي) إلى المجال العالمي الكوني وليس الدولي الذي يعني وجود الحدود وخطوط الفصل بين الكوني أو العالمي تعني تجاوز الحدود بل زوالها. كما قد يعني عصر العولمة بالنسبة للتربية والتعليم الوصول إلى مستوى التميز في التعليم، حيث يقتضي هذا التميز المساواة بين أفراد الشعب في الفرص المتاحة، حتى يتمكن الكل من بلوغ المستويات العالمية في الإنجاز.

وبحسب مكتب اليونيسكو الإقليمي للتربية في البلاد العربية، فإن عصر العولمة يفرض تطوير التعليم، بمراحله وأنواعه وأنماطه المختلفة، بما يكفل تحقيق التنمية الشاملة وتوسيع فرصه وربط مراحله مع بعضها البعض والارتقاء ببرامجه، بحيث يؤدي ذلك إلى تفاعل مع العولمة دون طغيان لثقافات وقيم على حساب ثقافات أخرى، أو بروز أشكال جديدة من الهيمنة، هذا بالنسبة للمدلول الظاهري للعولمة التربوية، غير أن الواقع العولمي العام والواقع التربوي يشهد بغير ذلك، أن الإشكال الحقيقي ينبع من أن المركزية الغربية النافية لوجود الآخر وقيمه وثقافته، متأصلة في منهج التربية هناك، حيث يأتي دور التاريخ المدرسي في خلق الأساطير المؤسسة للتلاحم القومي والاحتكار الاستعماري وما بعد الاستعماري لقيم الآخرين، حين لا يجد الغرب ما يعلمهم عن طريق حوار الحضارات. وهذا ما

يكشف أن نزعة المركزية الغربية تكمن في البراجماتية الأمريكية التي تجلت آخر مظاهرها في العولمة (عبد الدائم عبد الله، 1991: 48).

إن البراجماتية هي الفلسفة الوحيدة التي أفرزت الفلسفة التقدمية، وأصبحت هي خطّاب الأمريكيين اليوم فيما عدا بعض أساتذة الفلسفة في الجامعات الأمريكية وبعض طلبتهم، حيث أصبحت الفرع الأكثر شعبية من بين فروع الفلسفة في أمريكا، بل تمكنت من قلب مذاهب الفلسفة رأساً على عقب، فهي على رأي كاندل تمثل العقل الأمريكي الذي كوّن الأمة الأمريكية (عبد العزيز صالح، 1964: 56-63).

إن العولمة التربوية في البراجماتية تتضح منذ نشأتها، حين تجاوزت حدودها الجغرافية إلى العالم كله. ذلك أن البراجماتية قد جاءت تعبيراً عن عصرنا العلمي من بعض وجوهه، وأنه من الصعب على المتعقب لثقافة هذا العصر أن يغمض عينيه عن هذا التيار الفكري الذي لم يكن ليتفجر ينبوعه على يد تشارلز بيرس، حتى أخذت روافده تتدفق بسرعة وغزارة، فأخصبت مختلف المكاسب من دنيا الفكر والثقافة.

وبالرغم من أن نشأة البراجماتية أمريكية، إلا أنها في الواقع غدت تسود ربوع الغرب بشطريه الأوروبي والأمريكي وتمثل الأساس الذي تمهض عليه فلسفة المعتدات، وتبنى عليه المعارف الإنسانية على اختلافها. والواقع أن قوة العولمة البراجماتية ونفوذها في جانها التربوي إنما يستمدان من قوة الولايات المتحدة الأمريكية، أين نشأت فيها البراجماتية (Friedrich Nietzsh, 2012: 163).

إن بروز الولايات المتحدة الأمريكية كقوة عظمى بعد الحرب العالمية الثانية، محاولة أن تخلف الاستعمار القديم المتمثل في إنجلترا وفرنسا وألمانيا، قد مكّتها من تحقيق أهدافها في النفوذ التربوي على وجه التحديد. وعلى سبيل المثال فقد حظيت كتب المؤسس الأول للتربية البراجماتية جون ديوي بالنصيب الأكبر من حركة الترجمة العربية التي شهدتها حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية، حيث قامت مؤسسة فرنكلين بدور الداعم والمغذي لعملية الترجمة في ميدان التربية والتعليم.

مما سبق تتضح الانعكاسات التربوية للعولمة البراجماتية على النحو التالي:

#### 1-الانعكاسات على الأهداف العامة

إن العولمة اليوم في بعدها المعلوماتي تُصرح بأنها تسعى لإعادة التوازن في ترتيب الأهداف التربوية، بحيث لا تُبقي الارتباط قائماً على نحو ما كان حاصل من قبل، حين كانت سوق العمل مرتبطة أشد الارتباط بتربية الصناعة ولكن على حساب أهداف التربية الأخرى (علي نبيل، 2001: 302).

غير أن المشكلة الحقيقية إنما تكمن في الغموض الجوهرى المكثف لفلسفة الهدف في التربية البراجماتية المنحصر في النمو أو التطور الطبيعى والفعالية الاجتماعية. وإذا رجعنا إلى فلسفة جون ديوي البراجماتية في ميدان التربية، فإننا لا نرى ثباتاً لأي شيء، حيث نحكم بالتغيير على كل شيء، كما تعتقد النسبية كذلك في كل شيء. إذا فإن القول بتغيير الأهداف وعدم وجود حقيقة أو قيمة أو معرفة مطلقة أو ثابتة هي الفلسفة الكلية لديوي، لقد أكد جون ديوي أن دور الأهداف لا يتعدى التحفيز والدفع الإرشادي لاختيار المعرفة، حتى لا تُصاب بالجمود والانعزال. لهذا ليس ثمة وضوح ودقة على نحو مقنع في أهداف التربية البراجماتية بالرغم من تأكيدها على هدف النمو، وأنه ليس النمو من هدف إلا النمو ذاته، أي أن النمو غاية في ذاته. والمقصود بالنمو هو النمو الإيجابي المرغوب، رداً على من يتساءل: أي نوع من النمو تهدف إلى تحقيقه البراجماتية؟، رغم ذلك إلا أن الإشكال يبرز في صورة السؤال القائل: ما معيار هذا النمو الإيجابي؟، بحيث يمثل اتفاقاً اجتماعياً دائماً لا يتسبب في نزاع أو خصام أو فرقة في المجتمع؟

## 2- الانعكاسات على طبيعة النظرة إلى الإله والدين

تقوم العولمة البراجماتية على تسليع كل شيء، بما في ذلك المقدسات الكبرى، بحيث أن اعتماد معيار النفع عندها، جعل من كل قيمة أو معتقد، إنما يستمد قيمته وأهميته من نفعه فإذا أضفنا معيار التجربة، بحيث تخضع كل الحقائق والظواهر للبحث والملاحظة والتمحيص، فإن ذلك يعني خضوع مفهوم الإله والدين لهذه المعايير بلا فرق بينها وبين أية ظاهرة مادية.

إن الإله عند ديوي مفهوم ينتابه الغموض، بسبب أنه كآية ظاهرة بحثية، فهي تحتاج إلى النقد والتمحيص والاختبار، لأن أي عقيدة لا تخرج عن كونها فرضية، وهذا ما ينعكس سلوكياً ويصفه مباشرة على ضعف الإنجاز والدافعية في القضايا الغيبية التي لا يترتب عليها نفع مادي عادل، فضلاً عن أن تصبح دافعا للسلوك، حتى وإن ترتب على ذلك جزاء محمود من الله تعالى أو عقاب منه-سبحانه-لمن تخلى عنها في اليوم الآخر، فذلك أمر لا يندرج في حساب العولمة البراجماتية تجاه الإله.

من هذا المنطلق، (أي منطق النفع والتسليع لكا المعتقدات والقيم)، جاعت نظرة العولمة البراجماتية في نظرتها إلى الدين على لسان المفكر البراجماتي العولمي الأول على الصعيد التربوي، جون ديوي، حيث يؤكد أنه على نحو معين مقرر، لا يوجد شيء اسمه الدين بصيغة الفرد، وإنما يوجد فقط حشد من الأديان (كرم يوسف، [دس]: 63).

## 3-الانعكاسات على الإنسان

وقفا للمنطق العولمي البراجماتي، فالإنسان ليس بأكثر من شيء متسلع، إذ تكمن قيمته في كونه مصدرا للربح وأداة من أدوات التسويق، والمحاولة قائمة لصناعة الإنسان الجديد ذي الهوية العالمية من غير أن يظل مرتبطا بقيم الغيب أو الدين، إلا إذا كان في ذلك منفعة. إن تركيز العولمة على الإنسان بوصفه جزءا من أجزاء السوق العالمية، خلق في نفسه السلبية والوقوعية تحت شعار الواقعية، وبدلا من أن يكون الإنسان أساس التغيير نحو الأفضل، فقد أصبح مستسلما جبريا خاضعا لتوجيهات سادة النظم العالمي الجديد وإلى وسائل الاتصال والاعلام التي تعمل في مجملها على تكريس هذه العقدة المتمثلة في عقدة تفوق الإنسان الغربي الماضي في سلم العولمة، لتغرس في نفسية الإنسان بصفة عامة عقيدة الانهزام والجبر، وأن طريق التقدم لا يمر إلا من خلال الخضوع التام للنظام العولمي الجديد.

## 4-الانعكاسات على المناهج

يعاني التعليم في الغرب من مشكلة ذاتية، تتمثل في ذلك التحول الهائل الذي شهده العالم خلال القرن العشرين، مما جعل من التعليم أداة هيمنة أوروبية على العالم، وهو ما دفع إلى إعادة التفكير بطريقة جذرية في مشكلات التربية سواء من حيث مضمون التعليم، أم من حيث هياكل نظام التكوين، إذ كانت الاصلاحات المزعومة للتعليم في القرن التاسع عشر والقرن العشرين مجرد ترقيعات مصحوبة بخصوصيات لا تنتهي في المقررات الدراسية الكلاسيكية والحديثة، وتدور حول المشكلات البنوية أو المطالب المهنية لرجال التعليم.

وفي النصف الأول من القرن العشرين الميلادي، ظهر مصطلح المفهوم الحديث للمنهج على يد جون ديوي، حيث شدد على ضرورة اهتمام المنهج بالمتعلم كفرد حر مستقل بحاجاته ورغباته واهتماماته، وبالتغيرات القائمة في المجتمع، وبالأنشطة المختلفة والخبرات (مراد بركات أحمد، 2001:11).

وحاليا فإن الباحث لا يختلف بالضرورة حول جوهر المصطلح، خاصة حين استخدامه من الناحية الاجرائية، فخلاله الحقيقي متجه نحو المنزع العولمي في بنيته وتكوينه ذي المنحى الفلسفي المادي الأوروبي الخالص، وفي الخضوع المقابل لذلك من قبل المؤسسات التربوية والشخصيات العلمية المتخصصة على مستوى التعليم والعام على حد سواء.

فمدلولات هذا المصطلح تشمل التركيز على الفهم والخبرة والنشاط، بدلا من الحفظ والتلقين والطرائق العتيقة وهذا لا يصح في حق بعض المناهج والمقررات مثل مناهج التربية الإسلامية وبعض موادها كالقرآن الكريم والحديث الشريف القائمين على الحفظ والتلقين.

## 5-الانعكاسات على المدارس

تقوم فلسفة إنشاء المدارس الرسمية انطلاقاً من واجب الدول في رعاية مواطنيها وتحقيق الفرص المتكافئة لهم في جانب التعليم، حيث قامت بسن القوانين والأنظمة التي تحقق ذلك ومنها مجانية التعليم والزاميته في بعض المراحل، لاسيما في التعليم الابتدائي، تحقيقاً لهدف محو الفوارق بين الطبقات وصهر المتعلمين في بوتقة المساواة، أما التعليم الخاص فله ميدانه بعد ذلك في ظل قوانين ونظم تحكم مساره. غير أن التهديد الحقيقي اليوم يتمثل في الانتشار السرطاني للمدارس الأجنبية أو تلك التي تعتمد المناهج الأجنبية في التدريس والتعليم، وصولاً إلى مناهجها وقيمتها وهوية العاملين فيها. والسؤال: هل هذا كله يتم باستقلالية تامة عن التبعية التي قد تصل إلى تلقي المساعدات والتوجيهات الأجنبية المتدثرة اليوم بتيار العولمة صراحة أو ضمناً؟

## 6-الانعكاسات على لغة التعليم

لما كان العولميون لا يقرون بخصوصيات الأمم والشعوب الثقافية، ويقفون بشدة ضد النسبية الثقافية والنسبية اللغوية، فإن ذلك يعني أهمية اللغة في حوار الحضارات، غير أن هناك وجهة أخرى تعد اللغة أداة صراع، وفي هذه الحال ستقود لغة واحدة على بقية اللغات، كما هو شأن اللغة الانجليزية السائدة اليوم في عالم الإعلام والمعلومات، بما يمكن وصفه بالإمبريالية الثقافية أو الداروينية الثقافية (علي نبيل، 2001: 232-233).

وإذا كانت الخشية من العولمة طالت فرنسا من الناحية اللغوية، وعبرت عن قلقها من انتشار اللغة الانجليزية واصفة ذلك بالهيمنة الثقافية، فكيف حال الدول المستضعفة والمهددة ثقافتها من كل جوانبها؟

وحيث تبرز صيحة إلغاء مجانية التعليم، واختلاق الأعداء التي تحول دون تعلم العلوم والتكنولوجيا باللهجة العربية، وصولاً إلى دعوة تبناها مراكز البحث الأمريكية تزعم تحرير اللغة العربية من إشكالاتها التقليدية، والتخفيف من مضامينها الدينية والحضارية والعربية، فإن ذلك يأتي متزامناً مع ظاهرة انتشار المدارس والجامعات الأجنبية تحت ستار تحسين التعليم وتطويره والهدف النهائي يمكن في إذابة مقوماتنا الثقافية والتربوية (عمار حامد، 2004: 24).

وهذا يتطلب توجيه المدرسة لإدراك التحديات الثقافية وغير الثقافية، في الحاضر والمستقبل، لتحقيق معنى كون الإنسان محور التفكير وغاية التربية، مع التأكيد على دور المعلم في الوضع الإنساني الجديد الذي يستدعي مراجعة فكرة الحتمية التكنولوجية بلا وعي أو إدراك لمضامين هذه الحتمية وأبعادها، كي لا نقع في شرك مشايعة شعار اللحاق أو الانسحاق، بل تتحول عنه إلى ثقافة وشعار الخيار التكنولوجي والتكنولوجيا البديلة، الهادفة إلى تحقيق سعادة الإنسان، عن طريق نشر الوعي بالعولمة وتوفير الاطار المرجعي للتعامل معها، وذلك من خلال: رفض الاستسلام، تجذير الفروق الثقافية، الاستقلال والتميز، تجديد الثقافة، التربية الأسرية.

## رابعاً: الفلسفة الأداتية

إن ما يميز جون ديوي هو قبوله لنظرية التطور قبولاً تاماً دون غموض أو إلهام. والعقل والجسم في رأيه عُضوان متطوران في التنازع على البقاء، لذلك كانت بدايته لكل موضوع بدايةً تطوريةً داروينيةً.

وعندما قال ديكرت بأن طبيعة الأشياء يمكن إدراكها وتصورها إذا اعتقدنا بتطورها ومجيئها تدريجياً إلى الوجود بسهولة أكثر من تصور إنتاجها دفعة واحدة في حالة تامة وكاملة، حينئذ يشعر العالم تماماً بالمنطق الذي سيسوده ويوجه حياته. هذا المنطق الذي عبر عن نفسه علمياً في كتاب داروين عن أصل الأنواع، عندما قال داروين عن الأنواع ما قاله جاليليو عن الأرض، فقد حرر بقوله هذه الأفكار التكوينية والخلقية تحريراً نهائياً، وخرج بها عن كونها أسئلة تبحث أن أجوبة لها. لذلك ينبغي تفسير الأشياء لا على أساس العلة والمعلول وما فوق الطبيعية، بل على أساس مكانها وعملها في البيئة (Christopher J.O. Baker, Kei-Hoi Cheung, 2007: 92)

لقد كان جون ديوي صريحاً في اتجاهه الطبيعي، واستنكر طريقة التفكير في هذا العالم بأسره بشكل واسع، واعتبر هذا الطراز من التفكير اعترافاً منا بعجزنا على السيطرة على مجرى الأشياء التي تهمنا بشكل خاص، وظهر شكّه وعدم ثقته بارادة شوبنهور، والدافع الحيوي الذي تحدث عنه برجسون، وأن الإله موجود في نفوسنا، وليس في هذه القوى الكونية المحايدة، ويجب أن نخلص لهذه الأرض التي نعيش عليها (ول ديورانت، 1985: 627).

لقد رفض جون ديوي الميتافيزيقا، واعتبرها صدى لعلم اللاهوت المختفي وراءها، وهو في هذا يحذو حذو بيكون وهوبز وسبنسر ومل، ويعتقد أن مشكلة الفلسفة دائماً هو اختلاط أبحاثها بالأبحاث الدينية، وهذا يعني ضرورة أن لا نفهم الحياة والعقل بالطريقة اللاهوتية الدينية، ولكن بالطريقة البيولوجية كعضو أو كائن حي في بيئة تؤثر عليه ويقاومها، حيث لا يجب أن ندرس حالات الإدراك، فالعقل هو عضو ذو تصرف معين، لا لمعرفة العالم، والفكر أداة لتجديد التوفيق، وعلى الفلسفة ألا تتجه إلى محاولة كيفية معرفة العالم الخارجي، ولكن إلى محاولة معرفة كيفية السيطرة عليه والأهداف من ذلك، فالفلسفة ليست تحليلاً للإحساس والمعرفة، فهذا من اختصاص علم النفس، ولكنها تنسيق بين المعرفة والرعية.

ولكي تتمكن من فهم الفكر، ينبغي أن نلاحظه، فهو ينشأ في مواقف خاصة، ويبدأ من مواجهة الكائن الحي للمشاكل والمصاعب التي تصادفه، فيأخذ في تكوين افتراضات يسترشد بها، ثم يُخضع هذه الافتراضات إلى الملاحظة والتجربة، والتفكير أيضاً اجتماعي لا يحدث في المواقف المعينة فقط، لأن الفرد من إنتاج المجتمع، كما أن المجتمع من

إنتاج الفرد، وفي المجتمع شبكة واسعة من العادات والتقاليد والأعراف والأفكار التقليدية، وهي كلها على استعداد لتكوين كل طفل مولود على صورة المجتمع الذي ولد فيه.

إن عمل المجتمع الوراثي هذا سريع جدا إلى درجة أن الناس قد أخطأوا فيها، فحسبوا وراثته جسدية أو بيولوجية، وحتى سبنسر قد أخطأ في اعتقاده أن عادات أو صور الفكر خلقية وذاتية في الفرد، بينما هي في الواقع ليست إلا من إنتاج وصنع الانتقال الاجتماعي للعادات العقلية من البالغين للأطفال.

لم تكن الفلسفة البراجماتية على أية حال فلسفة أمريكية بكل ما في كلمة من معنى، لقد دعت إلى الأخذ بالنتائج العملية والأمور الواقعية، ولكنها قفزت بعد ذلك بسرعة من الأرض إلى السماء، حيث بدأت برد فعل سليم ضد الميتافيزيقا وفلسفة المعرفة، وتوقع الإنسان منها تقديم فلسفة عن الطبيعة والمجتمع، ولكنها انتهت بالدعوة إلى احترام كل عقيدة دينية وتبجيل كل إيمان. متى تتعلم الفلسفة أن تترك للدين المسائل المحيرة حول الحياة الأخرى، وتترك لعلم النفس مشاكل عملية المعرفة ومصاعبها، وتوجه نفسها بكل قواها إلى تصوير الأهداف الإنسانية وتنسيق الحياة الإنسانية والتهوض بها.

لقد أعدت الظروف جون ديوي للقيام بهذه المهنة وإشباع هذه الحاجة، وإيجاز فلسفة تعبر عن روح أمريكا الواعية المدركة المثقفة. فقد مكنته العشرون سنة التي قضها في الغرب الأوسط من رؤية أمريكا الفسيحة الواسعة، فدرس إمكاناتها وقواها وحدودها وعندها أخذ يكتب فلسفته، قدّم لتلاميذه وقرّائه تفسيراً وشرحاً وافياً عن تلك المنطقة.

لقد كتب ديوي فلسفة القارة الأمريكية كلها، فقد جلب بذلك أنظار العالم لأول مرة أثناء تدريسه في جامعة شيكاغو، حيث كشف عن أفكاره في السنوات التي قضها هناك، ولعل من أشهر كتبه هو "الديمقراطية والتعليم"، حيث جمع فيه خطوط فلسفته وركّزها حول مهمة النهوض بجيل أفضل، لقد اعترف بزعامته جميع الأساتذة والمعلمين وتأثرت بنفوذهم معظم المدارس والجامعات الأمريكية. كما أبدى نشاطاً فائداً وجهوداً كبيرة في تجديد المدارس في مختلف أنحاء العالم (ول ديورانت، 1985: 625).

لقد طالب سبنسر بزيادة تدريس العلوم وإقلال دراسة الآداب في برامج التعليم، فجاء جون ديوي وأضاف على ذلك وجوب تدريس العلوم بطريقة عملية تأتي عن طريق الممارسة الحقيقية النافعة للحرف والمهن، لا طريق تعليم الكتب. إذ ينبغي أن تكون المدارس في مجتمع صناعي شبيه بالمصنع الصغير، ويقوم بتعليم طلابها بطريقة عملية، يتدرب فيها التلاميذ بإقامة التجارب العلمية والاستفادة من أخطاء هذه التجارب، وبعبارة أوضح تطبيق نظرية التجربة والخطأ، وتدريس الفنون والنظم اللازمة بالنسبة إلى النظام الاقتصادي والاجتماعي، وأن ينظر إلى التعليم لا على

أساس كونه مجرد إعداد للنضوج، بل نمو ونهوض مستمر للعقل، وتنوير مستمر للحياة. فالمدارس لا تقدم سوى وسائل النمو العقلي، والبقية تعتمد على مدى استيعابنا وتفسيرنا لتجاربنا، والتعليم الحقيقي يأتي بعد تخرجنا من المدارس، ويجب أن يستمر معنا طيلة حياتنا.

#### خامساً: العلم والسياسة

إن النمو والتطور في نظر جون ديوي من أهم وأبرز المواضيع بالدراسة والاحترام والتبجيل، فقد جعل من النمو والتطور مقياسه الأخلاقي. فالنمو في نظره هو المقياس الأخلاقي وليس الخير المطلق. والكمال ليس هدفاً نهائياً، فالهدف من الحياة هو عملية مستمرة نحو الكمال والنضوج، والإنسان السوء مهما كان طيباً وخيراً في الماضي هو الإنسان الذي بدأ في الانحطاط والفساد، والإنسان الفاضل أو الطيب مهما كانت أخلاقه فهو يتجه في طريقة لتحسين نفسه.

إن مثل هذه النظرية تجعل الإنسان شديداً في الحكم على نفسه وإنسانياً في الحكم على الآخرين، وليس الجهل نعمة وسعادة، بل فقداناً للشعور واستعباداً ورقاً، والعقل وحده هو الذي يمكننا من الاشتراك في تكوين مصيرنا وحرية الإرادة هي استضياء السلوك بالمعرفة، والطبيب أو المهندس يكون حراً في أفكاره أو أعماله بمقدار معرفته بعلمه وعمله، لذلك ينبغي أن نضع ثقتنا في الفكر لا في الغريزة، إذ كيف يمكن للغريزة التوفيق بيننا وبين البيئة المصطنعة التي أوجدتها الصناعة من حولنا، والمشاكل المعقدة التي تُربكنا وتحيرنا. لذلك فإن الطريقة الوحيدة التي تمكننا من رؤية الموقف بطريقة ثابتة شاملة هو أن نضع في أذهاننا أن المشكلة كلها تكمن في تطور العلم وتطبيقه على الحياة، وأن تعود الأخلاق والفلسفة إلى حب الحكمة.

لقد قبل جون ديوي الديمقراطية مُخالفاً بذلك معظم الفلاسفة على الرغم من معرفته لأخطائها، إذ أن هدف النظام السياسي أن يساعد الفرد على التطور والنهوض بنفسه تطوراً تاماً. ولن نصل إلى هذا إلا إذا اشترك كل فرد على قدر وسعه في تقرير سياسة جماعته ومصيرها، كما أن الأرستقراطية والملكية أكثر مقدرة وكفاءة من الديمقراطية، ولكنها في الوقت ذاته أكثر خطورة منها (ول ديورانت، 1985: 630).

إن جون ديوي لا يثق بالدولة ويفضل نظاماً متعددًا يقوم فيه بعمل المجتمع بقدر المستطاع جمعيات طوعية اختيارية، حيث يرى أن في تعدد المنظمات والأحزاب والشركات والنقابات وغيرها توفيقاً بين الفردية والعمل العام المشترك. ولكن تجديد البناء السياسي لن يتحقق إلا إذا طبقنا على مشاكلنا الاجتماعية الوسائل التجريبية والآراء التي أثبتت نجاحها في العلوم الطبيعية.

وأخيراً فإن ما يريد أن يعرفه أصحاب العقول الراجحة الجديدة الذين لا يعملون في الحقل الفلسفي، هو ماهية التعديلات التي يمكن إدخالها على التراث الفكري، والتي تحتاجها الحركات الصناعية والسياسية والعلمية، فمهمة

الفلسفة هي توضيح آراء الناس بالنسبة إلى الكفاح الاجتماعي والأخلاقي في الوقت الذي يعيشون فيه. وأن تكون مهمتها إنسانية وأداة لتناول هذه المنازعات والمشاكل، فالفلسفة هي التوفيق بين العوامل المتصارعة في الحياة.

### خاتمة

إن اعتماد البراجماتية على الحس أو العقل وحدهما دون اعتبار لمصدر الوحي، جعل منها فلسفة تربوية مادية كأى فلسفة قديمة أو معاصرة من هذه الناحية. غير أن المنزع البراجماتي العولمي الهادف إلى فرض نموذج على العالم بما في ذلك المجتمعات العربية الإسلامية، التي تجعل من الوحي مصدرا مهيمنا وطريقا أساسيا من طرائق المعرفة، هو ما يمثل محاولة لاستعمار ثقافي جديد، حيث لا يراعي خصوصية ولا يلتفت إلى المكونات الأساسية لأي حضارة مغايرة.

كما أن انطلاق البراجماتية من منطلق النسبية والتغير وعدم الثبات على شيء إلا بحسبانه عملا مفيدا نافعا نفعا ماديا عاجلا، جعلها تنظر إلى المعرفة كلها على أنها تجريبية غير ثابتة وقابلة للمراجعة، لذلك فإنها تهتم بمرحلة استخدام المعرفة أكثر من اهتمامها بالحقيقة ككتلة من المعرفة.

فالبراجماتية ترى إمكان الوصول إلى المعرفة، غير أنها تشترط لها إجراءات لئن ناسبت بعض مجالات المعرفة فإنما لا تناسب بعض المجالات الأخرى، وهذا بدوره يؤدي إلى جعل المتعلم يشك في كل معرفة لم تمر بالتجربة والاختبار ولا تشكل نفعا ماديا عاجلا، بما في ذلك المعتقدات الدينية والقيم الخلقية، والتي لا يمكن إخضاعها للمنطق المادي الخالص.

### المراجع

1. الدغشي أحمد محمد (2017). دراسات في فلسفة التربية الإسلامية. عمان: مركز الكتاب الأكاديمي.
2. عبد الدائم، عبد الله (1991). نحو فلسفة تربوية عربية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
3. عبد العزيز صالح (1964). تطور النظرية التربوية، ط2. القاهرة: دار المعارف.
4. علي نبيل (2001). الثقافة العربية وعصر المعلومات - رؤية لمستقبل الخطاب العربي-. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
5. عمارة، محمد (1998). الإسلام والعولمة. القاهرة: الدار القومية العربية.
6. عمار حامد (2004). الحادي عشر من سبتمبر 2001 وتدايعاته التربوية والثقافية في الوطن العربي. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

7. غارودي روجيه (1998). العولمة المزعومة – الواقع، الجذور، البدائل-. ترجمة محمد طاهر السبيطي، صنعاء: دار الشوكاني للنشر والتوزيع.
8. قورة حسين سليمان (1985). الأصول التربوية في بناء المناهج، ط8. القاهرة: دار المعارف.
9. كرم يوسف (د س). تاريخ الفلسفة الحديثة. بيروت: دار القلم.
10. مدكور علي أحمد (2000). التعليم العالي في الوطن العربي – الطريق إلى المستقبل-. القاهرة: دار الفكر العربي.
11. مراد بركات أحمد (2001). ظاهرة العولمة – نظرة نقدية-. الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة.
12. ول ديورانت (1985). قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي. ط5. ترجمة فتح الله محمد المشعشع. بيروت: مكتبة المعارف.
13. Friedrich Nietzsh (2012). *Ainsi parlait zarathoustra*, Traduction Henri Albert, paris:La Gaya scienza.
14. Christopher J.O. Baker, Kei-Hoi Cheung (2007). **semantic Web, Revolution Knowledge Discovery in the life sciences.** , New York: springer.